طغراء النور والماء:

روح بغداد الحنونة حين تتسامى على التراب

الشاعر عبد الزهرة زكي

عبر عنوان ديوانه المثير طغراء النور والماء، الصادر عن دار المدى عام الفين وتسعة، يدخلنا الشاعر عبد الزهرة زكي الى جو صوفي مشغول بعناية، على صعيد الكلمات والصور والحدث الشعري، مرتدا الى قرون سابقة بلغتها الصوفية المتكسرة على لسان العارفين دون أن تفصح كلية عن القصد. بهذا وكأنه يروم تمثيل بغداد بأجواء ورموز وإيحاءات في نهار عباسي مر ذات يوم على شواطئ دجلة. ونحن مع كلمات توحي بكل ذلك مثل بخارى، والقيان المجلوبات من روما، والتاجر من انطاكية، والخمر، والعود، والموجة المتصاعدة من تحت شط الرصافة، وعبيد زنجبار.

شاكر الأنباري

الألوان والموسيقى والسم والإبريق، وغير ذلك من مفردات تستجيب لانتقائية الشاعر واقتصاده في صناعة القصيدة، سواء من خلال نصه الطويل نهار عباسي، أو من خلال بقية الأبواب الثانوية التي سماها رواية الهدهد، ولكنه قطعها الى لحن غامض، وحينما سها الملاك، وتربية الذئاب، ومثل موجة سوداء، والطير نافقة في قلب الناي، ومن منمنمة الغلاف، وغيرها من عناوين مثيرة تهمس الى قارئ يفاجأ بتلك الضراوة بالانتقاء والصمت والاقتصاد في التعبير.

وبرغم ان عبد الزهرة زكي من جيل السبعينيات، وكانت له بصمة مميزة بين ذلك الجيل، لكنه لم يصدر قبل هذا الديوان سوى ثلاثة دواوين طوال مسيرته الشعرية، وهي: اليد تكتشف، وكتاب اليوم، كتاب الساحر، وكتاب الفردوس. طغراء النور والماء يضج بروح صوفية، حنونة، كما لو كانت تتسامى عن وقائع مبتذلة او قاسية، حيث النص يبتعد عن وقائع مثل تلك ويطير بجناحي هدهد أو قبرة أو بومة، نحو سماء تجلت ذات يوم في المدينة العباسية الثرية بعرافيها ورهبانها ولغاتها وميولها الاعتزالية خوفا من تسرب حياة مشبعة بالتلوث والابتذال (انت التي تصف/ وهي التي تصغي/ تصغي فتغمض عينيها/ وتصغي/ حتى يشف قميصها عن نهديها/ وعن قلبها/ بوجيبه الساخن/ فتذوب/ فتنام/ اصبعك تضرب في العود/ وخاتمك/ يقلب كتابا في التنجيم.).

كان زكي اذا يهندس مشهده الشعري كي ينتظم في غواية القص. يستلهم، تماشيا مع تاريخ بغداد، كتاب منطق الطير لفريد الدين العطار، أو مثنويات جلال الدين الرومي، رابطا لغته ومشهديتها الشعرية والقصصية بتلك النهارات الصوفية المذهبة، التي كانت خلال قرون تستلهم الحكمة من الطير، والحجر، واللون، والحرف، ورنة العود. ويربط كل ذلك مرموزات تتكرر في ثنايا القصائد، مسبغة عليها مذاقا واحدا، أو يكاد، من حكمة وفلسفة وتسام روحاني وغوص في تاريخ المكان.

والمرموزات هي البومة والهدهد والملاك والنسرين والشمس. ففي باب رواية الهدهد يقول: كانت البومة تغني/ وكانت أوراق النسرين تنحل غبطة/ فتأخذها الريح والمياه/ في ذلك النهار/ حيث لم يعد ثمة نسرين/ اختفت البومة/ وظل الجبل يردد أغنية البومة/ وهي تتكلم عن وحشة النسرين. ورغم روح القص المباشرة في قصائد الديوان، الا أن صناعة النص واضحة، تستمد من حيوية الذهن وثقافته أكثر مما تستمد من ملموسات الحواس للشاعر، وعبر آلية كتابية مثل تلك تتكسر علاقات المنطق في المشاهد، ويغسل الذهن بمدلولات التاريخ ورموزه وأجوائه، مما يخلق نكهة مميزة للغة الشعرية، يخرجها عن الكتابة السائدة. مع ان غواية مثل تلك تحرم الشاعر من ثيمات غزيرة في بغداد الحاضر، قصصها وعذاباتها، تفاصيلها ومرموزاتها، عدا عن امكانية شاسعة لتواصل القارئ المعاصر مع نص الشعر هذا. لكن الموجة تبقى سوداء حسب النمط الارتكاسي لزكي، ويبقى الحنين دائما الى الماضي. ماضي القيان والمعتزلة وطغراء الضوء وعيون المها وناي العارفين وهو يتجول في سوق الصفارين وشارع الرشيد وساحة عبد القادر الجيلي وباحات المستنصرية، ذاهلا عن كلام الناس، لولا الوسواس، وضربة الموجة السوداء. وهو يحاور نفسه فقط: (اصبع من هواء/ وشفتان تطبقان على الناي/ من الناي تطير موجة سوداء/ اصبعه هنا وشفتاه هناك/ هنا وهناك/ بعيدا عنه/ عن الملاك يرى صورته ترف/ مثل موجة سوداء تتلوى على التراب.).

عبد الزهرة زكي في ديوانه هذا لا يريد أن يدهش أحدا، ولا يريد أن يثير زوبعة شعرية، بل يحاول أن يغني لنفسه، حسب تعبير والت ويتمان. لكن العراقيين في هذه السنين العجاف لا يرغبون في سماع أحد، لا شاعرا ولا مفكرا، لا خطيبا ولا مفوها، لذا يطيّر نصه الى الأفق البعيد، خارج الخارطة، ومن دون أمل.

مسلسلات القهر والبكاء والكذب

ابتسام يوسف الطاهر
لندن

في العراق جعلنا عصر الفضائيات نعيش أيام انقلاب البعث الدموي.. ونحن نرى بقاياهم مازالوا يتصيدون الشوارع المتعبة ليزيدوها خرابا، يترصدون الناس ليزرعوا طريقهم موتا ويسرقوا من عيونهم بقايا الأمل. وتنقلك قناة أخرى لتريك شوارعك العطشى ورافديك مسلوبي الروح والمياه، وتستغيث ولا من مجيب.

وفي الجانب الآخر من الجحيم في اليمن (السعيد) يستخدمون الطائرات والدبابات ليدكوا قراهم الجرداء ، وكأن الذي باعهم تلك الأسلحة اشترط عليهم ان لا يستخدموها إلا ضد شعوبهم!.

فتهرب للمسلسلات (علشان ماليش غير-ها) لعل فيها ومضة فرح أو أملاً تاريخيا كان أو من نفايات الواقع. خاصة وقد صارت المسلسلات اليوم (حنة ورنة) بعد تكاثر الفضائيات التنافسي العشوائي. لتجدها في (زمن العار) هذا، لم تكن أكثر من (قلب ميت) ليس فيها ما يرطب يومك بنهار رمضان الطويل وعطشه. ففي زمن العار المسلسل الناجح دراميا وهو ينقلك لحواري سوريا الخلفية بفقرها وحرمان أهلها وصراعهم من اجل البقاء، ومن اجل الحفاظ على قيم التسامح والشهامة وإجارة الغير. يصدمك بمشاهد أخرى سطحية بطرح بعض الأمور فمن خلال أحدى الشخصيات وهي ترحّل معاناتها على العراقيين الذين لجؤا لسوريا "بكرى لما العراقية - أي العراقيون- يرجعوا لبلادهم تصير الأمور أحسن وترجع مثل ما كانت "لم يطرح المخرج الجانب الأهم من قصة العراقيين التي زجها بالعمل بشكل فاشل، وهو كيف أن سوريا ازدهرت بسبب أزمة العراق، فالأموال انهالت عليهم من كل جانب لإيوائهم بعض العراقيين، بعضها من الحكومة العراقية ومن المنظمات العالمية ومن العراقيين البعثيين الذين نهبوا أموال الشعب العراقي وهربوا بها ليعمروا سوريا ، فقد ازدهرت حركة البناء هناك بشكل ملفت للنظر خلال الخمس سنوات الأخيرة!.

ولم نر في تلك المسلسلات أو غيرها أي شيء (خاص جدا) ، (فالجيران) يتحينون الفرص لأذيتنا ولكي نبقى سوقا لبضائعهم الرديئة! ويتكرر في اغلبها ديكورات تجدها في الفنادق السياحية ذات النجوم وأحيانا تشبه محلات بيع الأثاث. كذلك تكرار المؤامرات والمشاكل اليومية لتزيد من (عمر شقائنا) وتعذب (قلوبنا الصغيرة) وتقتل (أحلامنا النبيلة). فمعظم المسلسلات سورية او خليجية ومصرية يتسابق فيها الممثلون على العنف والحوارات الصاخبة بين الافراد ، وكأنها تعزز طريقة فيصل القاسم في حواراته البائسة، او تركيزها على البكاء والنحيب ومشاهد الدموع التي والشهادة لله ان اغلبهم أتقن مشاهد العويل والصراخ لدرجة أنها لا تتركك إلا وأنت تبكي وتعاودك الكآبة التي حاولت الهرب منها. حتى أن صغارنا صاروا يتساءلون ساخرين "لماذا لا تكون هناك مسابقة بكاء على شاكلة، ستار أكاديمي، يفوز فيها من يلطم أحسن ويبكي بدموع أكثر "!!؟

فتلك المشاهد تتمطى وتتطاول مثل ليل امرؤ ألقيس بينما لحظات الفرح والأمل تمر كالشهب مسرعة أو كجلمود صخر حطه السيل من عل.

وما يزيد الغضب هو القطع المتواصل للمسلسلات والبرامج لتقديم إعلانات تتكرر بشكل غير مدروس و يثير الأعصاب والغضب.. فكل القنوات صارت تحاكي القنوات الخليجية بكم الإعلانات الذي يتكرر أحيانا لنفس السلعة أو لنفس البرنامج وبنفس اللحظة والثانية، فما أن يظهر المشهد لأي عمل وبعد ثوانٍ وليس دقائق يظهر شعار اليوم (هذا البرنامج برعاية) ليمطرونا بكم السلع والشركات أو غيرها، بتواصل لأكثر من خمس دقائق.

القناة المصرية كانت تكتفي بعرض عدد الإعلانات قبل بدء الفيلم أو المسلسل ومثلها بعد أن ينتهي، لكنها اليوم صارت تقلد الأخريات وبشكل مبالغ به ومشوه أحيانا. فحتى برامج اللقاءات مع الفنانين كما حصل في اللقاء المتسلسل مع عمر الشريف، يُقطع الحوار لعشرات المرات في الحلقة الواحدة بل أحيانا تقطع الجملة قبل اكتمالها ليمطرونا بإعلانات متكررة ومنها إعلان عن البرنامج المقطوع!!؟

عرفنا من خلال التلفزيون البريطاني أن الإعلانات تتكرر حقا لكن كثير ما يكون قطع الفلم بمحله وبشكل مدروس ومتآلف مع ثيمة الفيلم أو البرنامج، ففي الأفلام التراجيدية او أفلام الرعب، تشعر بأنك بحاجة لالتقاط أنفاسك لتنأى بعيدا عن أجواء الفيلم من خلال الإعلانات، لتعود له مرة أخرى من دون ان تتأثر أعصابك، لكن بالرغم من ذلك الكثير منا يفضل متابعة افلام وبرامج الـ (BBC) لعدم قطع العرض لتقديم الإعلانات.

فهل هناك أمل بأن ترحم الفضائيات أعصابنا وتقدم الإعلانات بشكل يرحم اذواقنا، أو لعلها تقدم الأفلام المميزة خاصة القديمة التي تعود بنا لماض لم نكن نتوقع إنا سنحّن إليه يوما!.

جدل الحياة

رياض النعماني

الثقافة نشاط خلاّق تقوم به روح فريدة، تحاول وبطاقة المصلحين الكبار .إصلاح التاريخ في مستوى خطئه الأول الذي استمر في تراكم أدى إلى خلق بنى تتحكم اليوم في صياغة سياسة ووعي، وخطاب الواقع الذي نحياه الآن.

إن ثمة مهمة نبوية لها علاقة خاصة في معنى العالم، وكرامة الإنسان ووجوده الحي، وفي بهاء الوجد وتحقيق العدالة والجمال والحق هي التي تحرك روح هذا الكائن الكوني. القطباني فيندفع .دون حساب للربح والخسارة .في طريق الصراع إلى ينابيع الحقيقة الأولى. انه وهو في طاقة إندفاعته القصوى هذه لا يفكر بالتنازل عن سلطته لأية سلطة (سلطة المال أو الدين أو السياسة).. إنما يقف وحيداً في ميدان الصراع مرفوعاً على تصميمه الأكيد وإرادته العالية ورؤاه التي تملك بزمام التاريخ وتوجهه.

فـ (البعض من البشر، يكمل جهد الخالق) كما يرى برغسون..

إذ إنه .. جاء ليعدل اعوجاج عصره، ويقول الذي لا يقال ولا يمكن إن يقال في فضاء من فكر ووجدان ناصع يعيد طرح الأسئلة الأولى على الوجود والأشياء وعلى ذاته هو.. ذاته التي تتفتح في سياق يرى في تكاملها مع الآخر مبرراً أولاً لوجوده الأعمق والمشروع، بل انه يؤمن إيمانا كاملاً بان هويته الحقيقية لا يمكن ان توجد إلا في وجودها في ذات هذا الآخر الذي يرى في مراياه ذاته وحقيقته هو.

الجدل الواضح الذي ينبغي إن يغني الحياة ويطورها ويدفعها بقوة المعرفة الخلاقة في طرقات الكشف والتجاوز والبحث عن الحقيقة ينبغي إن يقوم بين السياسي وبين المثقف في مناخ عال من إرادة البناء وتطوير الواقع وتغيير عادات التفكير القديمة والإشكال والأساليب التقليدية بخطاب يرى في إعلان القطيعة مع الجانب الميت من التراث في قراءة جذرية تلتقط الإشارات والاضاءات التي لا تزال تمتلك قوة حضور وطاقة على الحياة تستطيع إن تحاور مشاكلنا الكيانية الكبرى، وتضيء وجودنا العميق اليوم..

الإصغاء والتأمل وإعادة طرح الأسئلة الوجودية الكبرى على كل شيء وفي كل شيء هي أهم تجليات وجود المثقف الناضج الذي نلمس في ممارسته الفكرية انفتاحاً وحضوراً فاعلاً.. خلاقاً للمستقبل،.. مثل هذا الجدل الناضج فهل يرى السياسي وخاصة العراقي ذلك ويؤمن به وبهذه الرؤية والطرح.

هل يمتلك السياسي إمكانية قبول قناعة المثقف الذي يعتقد بان للحلم طاقة وقدرة على كشف الحقائق الجوهرية التي تضيء المستقبل وتبدعه أيضا؟

أرى في تكامل المشروع التاريخي لجهد المثقف والسياسي طريقاً عظيما وأكيدا ليس فقط لبناء حياة حرة وكريمة وتليق بفطرة الكائن على الأرض وإنما لحيازة شروط وامكانات تفتح عظمى لمعرفة الكون واكتشاف المجهول وابتكار مستوى من الوجود تنعدم فيه شروط القهر والتخلف والردة واليأس والخيبة وتحفظ وتتقدم بدلاً من ذلك وتزدهر قيم الأمل والفرح والمسرة والفطرة السليمة التي تعيد للإنسان بياضه الأول ودفئه وكرامته ووجدانه الأول.

تعيده إلى الأول الذي فيه تعيده إليه.

خارج العاصمة

اتجاهات نوبل

محمد خضير

حدثان بارزان، في الشهرين الماضيين، قلبا توقعات المراصد الشرق/عربية، وأدارا الوجوه نحو أكبر محفلين عالميين، منظمة اليونسكو وأكاديمية نوبل، صوتا لامرأتين من الشطر الشرق/أوربي، كي تمثلا تفوق الديمقراطيات الجديدة على الديمقراطيات القديمة. ربحت إيرينا بوكوفا البلغارية أصوات منافسها فاروق حسني، وزير الثقافة المصري، وفازت بمنصب المدير العام لليونسكو، بينما اختطفت هرتا مولر الألمانية/الرومانية الأصل جائزة نوبل للآداب من مرشحي القائمة الخمسة المنتظرين فوزهم منذ أعوام. أسقطت سفيرة (الستار الحديدي)، وأديبة الأقليات المحرومة، هيبة القاموس المطعّم بألفاظ الغلبة والسيطرة والاختطاف، وخالفتا توقعات الخاسرين المتدافعين على أبواب المحافل العالمية العظمى. لم يكن فوزهما كأي فوز، ولا غلبتهما كأي غلبة، بل علينا أن نحتاط لألفاظنا كي ننتقل مع الفائزتين إلى المرحلة الجديدة لعالم بلا تكتلات أو لغات متحجرة وراء سُتُر عالية.

عاشت مولر بين أقلية ألمانية، في بلد كان جهازه الأمني يتلصص على النصوص المعزولة عن الأغلبية القومية، تلك المكتوبة بلغة الذات المطرودة، لغة اليوميات والشعر والرواية الانشقاقية. هربت مولر من حاضنها الغريب وعادت إلى حماها الألماني، بينما هاجرت بوكوفا في الاتجاه المعاكس لموطنها الأصلي وتقدمت أميالاً نحو باريس لتجمع بين مزايا الهويات الغالبة والهويات المغلوبة، وتلتحق بمواطنها تودوروف الذي حاز مثلها مزايا الهويات العابرة، ومعرفة الآخر الكافية لاختراق منظومته الفكرية واصطلاحاته النقدية. انتظرت مولر أن تأتيها جائزة نوبل إلى عقر دارها، أما البلغاريان الجريئان فقد قصدا باريس ليأخذا حقهما من الاعتراف بمكانتهما العالمية. إنهما خطوتان متعاكستان فكتا قوسي الإشكالية الإنسانية المهجورة بارتباط الوطن الأبدي، أو بحرية الانتقال بين الأوطان البديلة. ويبدو أن أكاديمية نوبل ستشجع على فتح أقواس إشكالية أخرى تردف بها هاتين الخطوتين، عندما تختار مستقبلاً أسماء متوارية وراء شرطها الإنساني النازع للانشقاق على حدود المكان والهوية واللغة والنوع الأدبي.

عانت هرتا مولر تبعات الشرط الروماني منذ ولادتها في ١٧ آب ١٩٥٣ بين أقلية ألمانية تقطن قرية صغيرة غربي رومانيا. وبالرغم من انتقالها إلى ألمانيا عام ١٩٨٧، ونيلها الجوائز هناك، إلا أن حياة القهر والضيق والاحتقار في الوطن الحاضن، سدت عليها منافذ الخبرة الإنسانية داخل هذا القوس نهائياً ((ببساطة الحياة في ألمانيا التي تبعد مئات الكيلومترات لم تمحِ خبرتي الماضية. لقد حزمت ماضيّ عندما غادرتُ)). ضيق عليها وطُردت من المصنع الذي تعمل فيه، وأرسلت أمها للخدمة في معسكرات العمل في أوكرانيا، وكان هذا كافياً لاحتراقها الكتابة ((كان عليّ تعلم الحياة عبر الكتابة، وليس الطريق الآخر)). والطريق الآخر هو الهرب أو القبول بتوافه الحياة داخل الشرط القمعي. وذلكم هو شرط الاعتراف بالأدب الانشقاقي الذي شمل باسترناك وسولجنتسين وإيمري كيرتيس وكونديرا ثم مولر، وكلهم هرّب كتبه لتُنشر خارج القوس الحديدي بمختلف اللغات. وكلهم عاد للارتباط بهذا القوس عندما تغيرت الشروط. عادت كتب هرتا مولر إلى رومانيا، وخاصة أشعارها، المؤلفة بطريقة الكولاج. ((لا يمكنك تغيير أي كلمة في كتابة الكولاج. هذا ما يجعل الكولاج قريباً من الحياة. لا يمكنك إعادة الماضي، لا يمكنك محو القصيدة كما يمكن أن تفعل هذا مع أي قصيدة عادية)).

هنا ينبغي علينا الانتباه، ومراقبة اتجاهات الأكاديمية السويدية، في أعقاب انهيار جبل حديدي أو سقوط جدار عازلٍ، وابتداء مئوية جديدة. ما أن تدخل الجائزة بلداً حتى تغير اتجاه أدبه وتمسح آثار الإثم والعار عن جباه أدبائه الانشقاقيين الرازحين تحت ثقل الواقعيات الكولنيالية والدكتاتورية، ورمزيات النظم الكلانية والبدائية، وحتميات النظريات التاريخية. كانت الجائزة بمقاس غونتر غراس الذي لخص (مئوية) ألمانيا عاما بعد عام حتى نهاية القرن العشرين، وهي اليوم بمقاس مولر التي افتتحت أعمالها عصر الديمقراطيات الجديدة. وذلك التلخيص الختامي طبقه ماركيز في مذكراته عن منطقة البحر الكاريبي عندما مرّت به الجائزة. كما أنهتْ الجائزة عصر (المفكرات الذهبية) الكولنيالية بعد أن حطّت على دوريس لسنغ وج. كوتزي الطالعين من جنوب إفريقيا. واقتصرت أعمال كنزو بورو أوي الياباني على نقد الواقع الرازح تحت إثم الهزيمة الحربية. كما إنها قضت على آمال كاواباتا في بعث الجمال المحتضر في الأدب الياباني الكلاسيكي. انتحر كاواباتا بسبب من نوبل. كذلك لم يبق شيء ثابت على حاله في ثنائية الصراع بين قيم الشرق والغرب المجربة في أعمال نجيب محفوظ وأورهان باموق. ولعل هذا الزلزال (المصوغ في ميدالية نوبل) يعنينا أكثر من غيرنا، نحن كتاب الشرق العربي والإسلامي، كلما اقتربت آثاره من سردياتنا المفتقرة للأفكار والمواقف النقدية إزاء عالم متغير، تأفل فيه تأثيرات القوس الحديدي، وتقوى داخله اتجاهات الأدب الانشقاقي. لن ننتظر طويلاً حتى ينقلب جيل فطن على هذه السرديات. سيحدث هذا بتأثير من نوبل.

لم تطارد اليد الرهيبة لنوبل أبطال هذا العصر فحسب، فقد بعثت الجائزة الأبطال النائمين في قبو الأكاديمية منذ عصور أدبية سابقة، ليشهدوا أحكامها الرجيمة أو الرحيمة على حد سواء، في حق الأدباء المنشقين. قد يكون الحكم عشوائياً، مخادعاً ومميتاً، وقد يكون مصيباً وعادلاً، فأي نص، مهما كان عصره وقيمته، معرّض لأحكام المحفل الأوربي المتغيرة حسب الأهواء، وربما قال أحد الأبطال المبعوثين من عصر الألياذة أن هرتا مولر دفنت موتها في أحشاء أبطالها، كما طبعت غضون وجوههم المعذبة في صورة وجه الدكتاتور الذي أعدمهم، لكن مولر نفسها فرت من الموت بأعجوبة، لذا فهي تستحق العفو والتكريم.